المحاضرة 05:المـــــــذهب الحـــنـــفـــي(01)

الهدف: التعريف بإمام المذهب، وأشهر شيوخه وتلاميذه ،والمراحل التاريخية التي مرّ بها المذهب في نشأته وتكوينه.

يعدُ المذهب الحنفي أحد أهم المذاهب الفقهية المعتمدة, وأقدمها, والتي ذاع صيتها, وانتشر خبرها في الآفاق, وأقبل الناس عليها من كل حدب وصوب; تعلما, وتفقها, وتفقيها, وتعبدا لله ،إذ جعل سبحانه لها القبول والانتشار بين خلقه, في الوقت الذي اندثرت فيه كثير من المذاهب, وماتت بموت أصحابها. فالمذهب الحنفي أحد هذه المذاهب التي كتب االله لها البقاء والاستمرار،وتلقتها الأُمة بالقبول ،بل هو أوسع تلك المذاهب انتشارا, وأكثرها أتباعا; حيث يبلغ عدد أتباعه اليوم أكثر من ثلث مسلمي العالم.

ترجمة إمام المذهب

هو أبو حنيفة النُّعمان بن ثابت بن ُزوطى بن َماه التيمي الكوفي،من أبناء فارس . **وكنيته :**أبو حنيفة. قيل سبب تكنِّيه بذلك: هو ملازمته للدواة التي تسمّى بلغة العراقيين حنيفة.ولد على الصحيح سنة ثمانين للهجرة بالكوفة في خلافة عبد الملك بن مروان.

وقد أدرك أربعة من الصحابة هم: أنس بن مالك, وعبد االله بن أبي أوفى, وسهل بن سعد الساعدي, وأبو الطفيل عامر ابن واثلة. وقد وقع الخلاف أيضا في رؤيته لهم, وروايته عنهم, والصحيح أنه رأى أنسا بن مالك لمَّا قدم إلى الكوفة ، وعلى ذلك فأبو حنيفة برؤيته لأنس بن مالك يعد من التابعين.

ـ نشأته وطلبه للعلم:

ولِد أبو حنيفة في الكوفة, ونشأ بها, ولم ُيعرف عنه حال نشأته توجه إلى العلم, ولا طلب له, وإنما كان منشغلا بالتجارة ،حتى قيض االله له الإمام الشعبي -وقد رأى فيه الفطنة والذكاء والنَّجابة- فأرشده إلى طلب العلم, ومجالسة العلماء, فوقع قوله في نفسه, واتجه إلى العلم; فكان أول ما نظر في علم الكلام حتى بلغ فيه مبلغا عظيما ،ثم لزوم حلقة حماد يتفقه عليه; حتى بلغ مبلغا ُيشار إليه فيه بالبنان.

أشهر شيوخه:

لقد كان عصر الإمام أبي حنيفة حافلا ِبأجلة العلماء من التابعين وغيرهم, ومن ثم فقد تسنَّى له أن يسمع من كثير منهم, ولعل من أشهر من أخذ عنهم :عطاء بن أبي رباح (ت١١٤هـ) , وهو أكبر شيخ له وأفضلهم على ما قال هو ،والشعبي(ت١٠٤هـ) وهو الذي أرشده إلى طلب العلم ومجالسة العلماء كما مر, وعمرو بن دينار (ت١٢٦هـ) ونافع مولى ابن عمر (ت١١٧هـ) وقتادة بن دعامة (ت ١١٨هـ), وابن شهاب الزهري (ت١٢٤هـ), ومحمد بن المنكدر (ت١٣٠هـ) , وهشام بن عروة (ت١٤٦هـ), وأستاذه الكبير الذي عليه تفقه, وتخرج: حماد بن أبي سليمان (ت١٢٠هـ), فهو أعظم مشايخه أثرا؛حيث لازم الإمام حلقته ثماني عشرة سنة.

أشهر تلاميذه:

تخرج على يديه خلق لاُيحصون ولا شك أنه على رأس هؤلاء الصحب والتلاميذ; الأعلام الكبار أمثال:أبي يوسف يعقوب (ت١٨٢هـ), وُزفر بن الهذيل العنبري (ت ١٥٨هـ), و محمد ابن الحسنّ الشيباني (ت١٨٩هـ) , و الحسن بن زياد اللؤلؤي (ت ٢٠٤هـ), و عبداالله بن المبارك (ت١٨١ه) ووكيع بن الجراح (ت١٩٧هـ), وعيسى بن أبان بن صدقة (ت٢٢١هـ), وابنه حماد بن أبي حنيفة (ت١٧٠هـ)، وغيرهم كثير.

مصنّفاته:

رغم غزارة علم الإمام أبي حنيفة, وإمامته وجلالته وتميزه في فقه الشريعة،إلا أنه لم يكن من المعتنين بالتصنيف والتدوين; وذلك راجع إلى تصدره للفتيا, وانشغاله وإقباله على التدريس والتعليم, ومناظرته للخوارج والمعتزلة في بدايته, وغير ذلك, إلا أنَّه مع ذلك كانت له بعض المصنَّفات والرسائل التي تبدو صغيرة في حجمها, لكنها عظيمة في قدرها وفائدتها, ويأتي على رأس تلك المصنَّفات كتاباه: (الفقه الأكبر في العقيدة, وكتاب :العالم والمتعلم)

محنته :

ابتلـي الإمام أبو حنيفة ، وكان بلاؤه ومحنته في إجباره على ولاية القضاء, وهو يمتنع عنها; تورعا, وطلبا للسلامة في دينه ،ومن خـلال تتبع الروايات تبين أن هذه المِحنة جرت له مرتين; مرة في عهد الدولة الأُموية, والأخرى في عهد الدولة العباسية.

وفاته: توفي الإمام أبو حنيفة فـي سجن بغداد فـي شهر رجب. وقيل: فـي شعبان, سنة خمسين ومائة, وله سبعون سنة. ودفِن في مقابر الخيزران في بغداد.

أطوار المذهب ومراحلهَ التاريخية :

ترجع نشأة المذهب الحنفي إلى أوائل القرن الثانيِّ الهجري, ً وتحديدا سنة (١٢٠هـ) , وذلك يوم أن جلس أبو حنيفة على كرسي الإفتاء والتدريس خلفا لشيخه حماد بن أبي سليمان, فكان هذا العامً شاهدا على نشوء أول مذهب فقهي معتمد. ويمكن تقسيم الأطوار والمراحل التي مر بها المذهب الحنفي منذ نشأته وحتى يومنا إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى:تأسيس المذهب ونشأته (١٢٠هـ ـ ٢٠٤هـ)

وهذه المرحلة تبدأ من عهد الإمام أبي حنيفة حتى وفاة الحسن بن زياد اللؤلؤي (ت٢٠٤هـ) أحد كبار تلامذته. ويعنى بتلك المرحلة: مرحلة تأسيس المذهب وقيامه, ووضع أصوله،وإرساء قواعده, والتي على أساسها يتم استنباط الأحكام, وتخريج الفروع،وقد تم ذلك على يد الإمام نفسه, وبإرشاد منه ،مع مشاركة

كبار تلامذته; حيث كان لأبي حنيفة طريقة فريدة في التدريس; تقوم على المحاورة والمناظرة في المسائل الفقهية حتى يستقر الرأي على حكم, وحينئذ يأمر أبا يوسف بتدوينه، وبناء على ذلك فإن تلاميذ أبي حنيفة كانوا مشاركين في تأسيس هذا البناء الفقهي, ولم يكونوا مجرد مستمعين,ُمسلمين لما يطرح عليهم.

ولقد قام هؤلاء الأصحاب - خاصة الصاحبين: أبا يوسف ومحمد بن الحسن- بعد وفاة شيخهم بجهود كبيرة في تطوير المذهب وتنقيحه; فقاموا بتنقيح تلك الآراء التي اعتمدوها على عهد شيخهم, وأعادوا النظر فيها,وراجعوها في ضوء ما استجد من أدلة وما حصل من تغير في حياة الناس ومشاكلهم, ولذا وجدنا أبا يوسف ومحمد ا قد تراجعا عن كثير من الآراء التي اعتمدها إمامهم لما اطلعا على ما عند أهل الحجاز،وكان من آثار ذلك أن خالفوا إمامهم في جملة من المسائل الأصلية والفرعية, ومع ذلك فهم مجتهدون ومنتسبون إلى الإمام لأنهم اعتمدوا قواعده, وساروا على طريقته في الاجتهاد ولذلكُد ونت آراؤهم مع آراء أبي حنيفة, وعد الجميع مذهبا للحنفية.

المرحلة الثانية:التوسُّع والنموُّ والانتشار (٢٠٤هـ- ٧١٠هـ):

وتبدأ هذه المرحلة من وفاة الإمام الحسن بن زياد (٢٠٤هـ), وتنتهي بوفاة **الإمام النَّسفي** (ت٧١٠هـ) صاحب المتن المشهور **كنز الدقائق**, وهذا يعنيَّ أن ابتداء هذه المرحلة كان من بدايات القرن الثالث الهجري,َّ وحتى نهاية القرن السابع الهجري وقد مثلت هذه المرحلة أزهى وأغنى المراحل التي مر بها الفقه الحنفي,من حيث التوسع والانتشار, ومن حيث توسع اجتهاداته ، وتطور آرائه؛فقد ظهر في بداية هذه المرحلة طبقة المشايخ, أو كبار علماء المذهب, الذين بذلوا جهودا ضخمة في تحرير المذهب, وتحديد مصطلحاته, وبيان أصول الترجيح والتخريج, وكانت كتب محمد بن الحسن أو ما اصطلح على تسميتها بكتب ظاهر الرواية هي الممثل الأول للمذهب, والناطق بآرائه وأقواله، كما نشطت حركة التأليف والتدوين, وطرقت شتى الأبواب والمسائل الفقهية, وتعرضت لبيان رأي المذهب فيما استجد من نوازل وقضايا في تلك المرحلة, فظهرت المتون أو المختصرات; كمختصر الطحاوي (ت ٣٢١ه) والكرخي (ت ٣٤٠هـ), والقدوري (ت ٤٢٨هـ), وبداية المبتدي للمرغيناني (ت ٥٩٣هـ), وغيرها.كما ظهرت الشروح والمطولات; كالمبسوط السرخسي(ت٤٩٠هـ) وبدائع الصنائع للكاساني (ت ٥٨٧هـ), والهداية للمرغيناني, وغيرها.كما ظهرت كتب الفتاوى والنوازل; كنوازل السمرقندي (ت٣٧٣/٣٧٥هـ)وفتاوى الحلواني (ت٤٤٨هـ), وفتاوى الصدر الشهيد (ت٥٣٦هـ), وفتاوى قاضيخان (ت٥٩٢هـ), وغير ذلك كثير من المصنَّفات وَ المدونات التيُتعد ثروة علمية ضخمة من التراث الحنفيَّ خلفتها لنا تلك المرحلة النَّشطة من تاريخ المذهب الحنفي.وظهر في تلك المرحلة أيضا, وتحديدا في القرن الرابع الهجري نوع آخر من التأليف عندَالحنفية, وهو ماُيعرف بالتأصيل الحديثي للمذهب; كما تشير إلى ذلك مصنَّفات الإمام الطحاوي الحديثية; كشرح معاني الآثار وُمشكل الآثار.كما برزت مدرستان أصوليتان عند الحنفية, لكل منهما ما يميزها عن الأخرى وهما:

- **مدرسة العراقيين**: وعلى رأسها أبو الحسن الكرخي: وتعد تلك المدرسة امتدادا لطريقة الإمام أبي حنيفة وأصحابه الأوائل.
- **مدرسة مشايخ سمرقند** :وعلى رأسها أبو منصور الماتريدي: وقد تميزت تلك المدرسة بربط مسائل الأصول بمسائل العقيدة; ممَّا أدى إلى وجود بعض الاختلافات والانفراديات عن مدرسةِالعراقيين.

المرحلة الثالثة:مرحلة الاستقرار (٧١٠هـ - وقتنا المعاصر)

وتبدأ تلك المرحلة من بداية القرن الثامن الهجري, وحتى وقتنا المعاصر،ولعل أهم ما يميز هذه المرحلة هو غلبة الركود والجمود الفقهي, على عكس ما كانت عليه المرحلة السابقة; حيث اكتفى أصحاب هذه المرحلة بالاعتماد على ما خلفه الأولون من الآراء والأقوال الفقهية, دون تجاوز إلا على سبيل الشرح, أو التحشية, أو التعليق, أو الردود; فكانت جل مصنَّفات تلك المرحلة وفقا لذلك.وقد ترتب على ذلك أن أشبعت مسائل المذهب وفروعه بحثا, ومناقشة وإيضاحا, وتأييدا, ممَّا جعل المذهب أو الرأي الراجح فيه يظهر بصورة أكثر وضوحا .